من التأمل الذاتي إلى أفق الانفتاح وانبثاق المعنى- مقاربة لفلسفة بول ريكور

From self –reflection to the horizon of openness and the emergence of meaning - An apporoach to Paul ricoeur’s philosophy

عواد نجاة كريمة
جامعة جيلالي ليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، مخبر الأبحاث والدراسات الفلسفية،
aouad.nadjet@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/07 **تاريخ القبول:** 2022/06/22 **تاريخ النشر:** 2022/10/10

ملخص:

سعى بول ريكور إلى تجديد البحث الفلسفي، في أفق الانفتاح من أجل ملامسة الدلالات الجديدة، التي أوجدتها محاولات الإنسان، قصد تجاوز كلّ الأوضاع التي تحجب عنه آفاق الانفتاح، في عالم يشهد انبثاق المعاني، وميلاد قيّم التشارك والعيش.

جمع بول ريكور في مشروعه الفلسفي ومقاربته المنهجية، بين البحث في الإنسان باعتباره كائناً متأملاً وأفقاً مفتوحاً، وبين سعيه لإنتاج المعنى وانبثاق الدلالة، من خلال الكشف عن أبعاده الأنطولوجية، وذلك في علاقته مع الآخر، حتّى يُمكن للذات أن تفهم ذاتها، وتفهم الآخر عبر الوسائط اللغوية في رحابة مجالات التأويل.

كلمات مفتاحية: التأمل الذاتي؛ المعنى؛ الدلالة؛ الفهم؛ التفسير.

Abstract:

Paul Ricoeur sought to renew philosophical research on the horizon of openness in order to touch the new connotations created by man's attempts, in order to transcend all situations that prevent him from opening up horizons, in a world witnessing the emergence of meanings, and the birth of the values of sharing and living.

In his philosophical project and methodological approach, Paul Ricoeur combined research on man as a contemplative being with an open horizon, and his quest to produce meaning and the emergence of significance, by revealing its ontological dimensions, in its relationship with the other, so that the self can understand itself, and the other through media. Linguistic expansiveness areas of interpretation.

Keywords: Self-reflection; meaning; significance; understanding; interpretation.

مقدمة:

تمكن بول ريكور من تشييد فلسفة تقوم على الانسجام المعرفي في بناءها العام، تتسم بالبساطة في شكلها وصياغاتها اللفظية، وبالعمق في دلالتها، الأمر الذي أعطى لها تميّزاً بين معارف شتّى.

انتقل بول ريكور من البنيوية التي ثمّن فيها صرامتها المنهجية، وتوظيفها لفتوحات الألسنية المعاصرة، التي نظرت إلى اللغة بما هي بنية قائمة بذاتها، تستوفي شروط تشكلها بعيداً عن أيّ تطوّر زمني، أو إحالة تاريخية – إنسانية، إلى الماركسية التي استنفذ منها منهجيتها الديالكتيكية، في إطار نسق مُعيّن، كبّل إرادة الإنسان. ومن التحليل النفسي الذي تتجلّى أهمية اكتشافه للبواعث النفسية اللاشعورية في تشكيل الأفق المعرفي والوجودي للإنسان، إلى الدراسات ذات الطابع الأخلاقي والتاريخي، إلى الدراسات الابستمولوجية، إلى النظرية السردية والنظريات اللغوية المعاصرة، دون إهمال مبحث الفينومينولوجيا، الذي شكّل في عمقه وحضوره، الخلفية المنهجية والمعرفية للمشروع الفلسفي عند بول ريكور. (ريكور، 2006، ص.6).

كيف السبيل إلى إدراك أبعاد الشغف الفلسفي وقضاياه عند بول ريكور، من منطلق الرؤية الفينومينولوجية والهرمنيوطيقية، التي تشكّلت لديه من خلال تأثره المباشر بفلاسفة على شاكلة هوسرل وهيدغر وغادامر وشلاير ماخر؟ على أساس أنّه كان يصبو إلى اعتماد مقاربة منهجية جديدة، تجمع بين دقة العلم وصرامته، وعمق الانطولوجيا وقضاياها، باعتبار أنّ الإنسان ذاته هو أفق مفتوح، يقتضي صبر أغواره، واستقصاء بواطنه الدفينة، قصد إدراك معانيه في علاقته بذاته وعلاقته بالآخر والعالم.

1. الهرمنيوطيقا عند بول ريكور، الدلالة والمعنى:

أدرك بول ريكور أنّ دلالة مفهوم الهرمنيوطيقا مرتبط بتاريخ أعلامها، غير أنّ ما ورثه عنهم من أفكار لم يكن كافياً لصياغة مفهوم نهائي لها، الأمر الذي جعل ذلك المفهوم يخضع للتعديل. وكان يرى أنّه لا يُمكن لذلك المفهوم أن يستقيم إلا إذا استثمر حاملوه علوم النص وعلم الدلالة وعلم التفسير. كان يرغب في وضع أسس علمية للتأويل والفهم عامةً، والتأويل والفهم الإنجيليين خاصة، وهو في ذلك يسير على خطى شلايرماخر، هذا يوضح في جلاء، بالقدر الذي سعى ريكور إلى

الاهتمام ببناء هرمنيوطيقا فلسفية عامة، اهتم أيضا ببناء هرمنيوطيقا إنجيلية خاصة. وكان يرى أنّ العلاقة بينهما هي علاقة جدلية، بحيث تخضع الهرمنيوطيقا الإنجيلية لقواعد التأويل والفهم العامة في الهرمنيوطيقا الفلسفية، وتتأثر هذه الأخيرة بالطابع الخاص للتأويل في الهرمنيوطيقا الإنجيلية. (عقيبي، 2012، ص.26).

يعرف ريكور الهرمنيوطيقا بأنّها: "نظرية عمليات الفهم في علاقتها بتأويل النصوص" (Ricœur, 1986, p. 83)، ويعتبر هذا التعريف تعريفاً علمياً، وهذا يُفسر رفضه في فلسفة ديلتاي وشلايرماخر إمكانية فهم الكاتب أكثر مما فهم نفسه، عن طريق إعادة بناء صيرورة الإبداع التي مرّ بها ومُعايشتها مجدّداً، فمثل هذا الحدس المباشر لذات أخرى غير ممكن، إذ تبقى دائماً الرموز والنصوص والثقافات هي الوسائط، التي يُمكن لذات أن تفهم من خلالها ذات أخرى، بل لا يمكن للذات أن تفهم نفسها إلا من خلال الوسائط اللغوية. (عقيبي، 2012، ص.27) ويُمكن تحديدها في الأصناف التالية: الوساطة بالرموز، يقصد بها التعبيرات ذات المعنى المزدوج، والتي طبعتها الثقافات القديمة بتسميتها لعناصر الكون، مثل النار والماء والريح، أو أبعاده مثل العلو والعمق والطول، أو لآفاقه مثل النور والظلمة. والوساطة بالعلامات، التي تؤكد الشرط اللغوي لكلّ تجربة إنسانية، حيث الإدراك يُقال، الرغبة تُقال، حتّى الانفعالات والرغبات المكبوتة تنتهي إلى التعبير عنها بأشكال مختلفة من التعبير عند فرويد، فأفق كلّ هذه التجارب هي علامات. والوساطة بالنصوص، وهي محدودة بما هو مكتوب، في حين تتجاوز الوساطة بالرموز والوساطة بالعلامات ما هو مكتوب إلى ما هو شفوي، ولكن الكتابة تفتح أفق الفهم على كلّ خطاب مهما كان شكله. (عقيبي، 2012، ص.27).

2. الفينومينولوجيا عند بول ريكور، النسبة والارتباط:

إنّ ارتباط بول ريكور بفلسفة هوسرل الفينومينولوجية هو ارتباط قوي، حيث تشكّل إحدى تقاليده الفلسفية، وإحدى السمات التي تميّز فلسفة الذات التي عمل على تنميتها، لذلك فهي فلسفة قابلة للتجاوز بالنسبة إليه، وهو يذكرنا دائماً بأنّ الهرمنيوطيقا التي انتهى إليها ليست سوى شكلاً مختلفاً من أشكال الهرمنيوطيقا، وهي الفينومينولوجيا الهرمينوطيقية، وهذا ما نجده في كتابه " من النص إلى الفعل"، حيث يتناول مسألة في غاية الأهمية، في فصل مستقل عنوانه: "من أجل فينومينولوجيا هرمنيوطيقية". (عقيبي، 2012، ص.28).

يتضح لنا من ذلك أنّ ما ترفضه الهرمنيوطيقا في فينومينولوجيا هوسرل هو طابعها المثالي الذي يقوم على ادعاء الأنموذج العلمي، رغم أنّ ذلك الادعاء يتعارض مع طبيعة العلوم ومُسلّماتها، ذلك أنّ التبرير النهائي الذي يشكّل الفينومينولوجيا وهو بلوغ الماهية الصورية للظاهرة، من خلال "الاختزال المتعالي" وهو أنموذج آخر غير الأنموذج العلمي، يصطدم بالشرط الوجودي للفهم، الذي يدل عند ريكور على تبعية كلّ تأسيس علمي لعلاقة مسبقة ومتداخلة للذات بالموضوع، وهو ما يسميه انتماء أو تبعية الموضوع للذات، وهي التجربة الهرمنيوطيقية نفسها. فإذا كان مفهوم الانتماء يدل على هيمنة الذات على موضوعها فهو شرط الذاتية، بينما مفهوم الثنائي هو شرط الموضوعية، بما أنّه يراعي ما يفصل الذات عن الموضوع زمنياً وثقافياً وجغرافياً، ويُراعي السياق الخاص والتاريخي للموضوع. (عقيبي، 2012، ص ص 28- 29).

ما يجعل بول ريكور في حيرة – في هذا المقام – هو إفساد المثالية الهوسرلية لاكتشافها الهام وهو مفهوم القصدية، عندما وضعته ضمن "صورنة" أضعفت تناوله، حيث تنتهي الذات الخالصة إلى الارتباط الجوهري بموضوع معطى جوهرياً إليها، مما يعطي العلاقة بينهما طابعاً مثالياً، لذلك فإزاحة هذا المسعى المثالي من شأنه أن يجعل القصدية مرتبطة بمعطى موضوعي بلحمه ودمه، وبما أنّ المقاربة الفينومينولوجية للتجربة المعيشة هي مقاربة حدسية، بل "إمكانية حدسية"، وبالتالي فإنّها لا تعود إلى التفسير ولا إلى الاستنباط، فإنّ ريكور يؤكد حاجة كلّ فهم إلى وساطة التأويل، وبالتالي وساطة الرموز والنصوص والثقافات بين الذات والموضوع، حتّى في أبسط حالات المحاورة بين شخصين.(Xavier, 2004, p. 95) .

3. المنعطف الفينومينولوجي للهرمنيوطيقا في منظور بول ريكور:

إنّ أعمال كلّ من ريكور وغادامر تدخل في إطار المنعرج الهرمنيوطيقي، لذا فمن غير المهم إدراجها ضمن تقليد الفينومينولوجيا أو الهرمنيوطيقا على حدّ سواء فقد أدرك كلّ منهما أنّه من المتعذر التفكير في إحداهما أو ممارستها دون الأخرى. بقي أن نشير إلى أنّ كليهما وصف المنعرج الهرمنيوطيقي في أعماله بطريقة مغايرة لطريقة الآخر. يعتقد ريكور أنّه لا يُمكن قيام وصف مباشر للظواهر دون تأويل، وبالتالي فإنّه لا مفر من اللجوء إلى منعرج هرمنيوطيقي. (غراندان، 2007، ص.141).

ولج ريكور باب الهرمنيوطيقا من منطلق أبحاثه حول مشكلة "الشر" وهرمنيوطيقا "الرموز". واهتم منذ كتاباته الأولى بإعطاء مفهوم التأويل بعداً جمالياً ولغوياً بالغ الدلالة، إذ يعتقد أنّ مجال التأويل، هو مجال الفكر الرمزي المنفتح على كلّ الآفاق والحدود، المهتم باستجلاء المعاني الباطنة من ثنايا التجربة المعيشة اجتماعياً وتاريخياً. هذا يعني أنّ علاقة الرمز بالتأويل هي علاقة جنينية، ترتسم حولها وبها معالم الحقل الابستمولوجي المؤسس للهرمنيوطيقا عند ريكور فهي التي تحدّد في النهاية، التنوّع والوحدة، وعلاقة الذات بالآخر، وعلاقة الكائن بالوجود، ذلك أنّ الرمز عند ريكور يحمل في جنباته إمكانية المزاوجة بين تأويلات عدّة، بل إنّ ما يؤسس للرمز، بما هو معطى منهجي وإجرائي، لا غنى عنه داخل المنظومة التأويلية، هو أنّه لا يمكنه أن يحمل معنى واحداً أو دلالة واحدة. (ريكور، 2006، ص.ص.8-9).

وإذا كان هوسرل في كتابه "التأملات الديكارتية" يخضع الكوجيتو لمتطلبات الأنا المحدّد بموضوع وعيه، فإنّ ريكور يخضع ذلك لمستلزمات التأويل. انتهى ريكور إلى تأكيد العلاقة الجدلية بين الفينومينولوجيا والهرمنيوطيقا، ويعبر تحليله لتلك العلاقة أكثر على فهمه للعلاقة بين الذات والموضوع، بين الأنا والآخر، إذ الأمر يتعلّق بفهم الذات وكيفية تفسيرها للآخر وتفهمه، هذا فضلاً عن كون الفينومينولوجيا تشكل بُعداً هاماً لهرمنيوطيقا ريكور. (عقيبي، 2012، ص. 32) .

4. لحظات الذات واكتشافها عند بول ريكور:

يمكننا أن نميّز ثلاث لحظات في مسيرة ريكور لإعادة اكتشاف الذات، ذاته هو، وفق الحالات الآتية. **لحظة الذات في مواجهة الأنا**، حيث يميّز ريكور بين مفهومين هما الذات والأنا، لذا نجده يميّز في النهاية بين معنيين للهوية: الهوية بمعنى الذاتية، والهوية بمعنى التماهي أو المطابقة، التي بموجبها يمكننا تعيين هوية موضوع معيّن عبر ديمومة سيرورة الزّمان، بما أنّها لا تخضع للتغيّرات الطارئة عليه. (ريكور، 2006، ص. 10) وهناك **لحظة الذات الفاعلة أو الذات – الفعل**، حيث نجد أنّ هذه الذات – الأنا لا يتأتى لها اكتشاف ذاتها، بل بالأحرى هويتها، إلا من خلال خيطها السحري الموجّه وهو الفعل. فإذا كان الكائن هو في تحديده الجوهري "همٌّ" – كما يرى هيدغر في الكينونة والزّمان – فإنّ الكائن عند ريكور هو "فعلٌ". (ريكور، 2006، ص. 11) وأخيراً، هناك **لحظة الذات – الغيرية**، حيث أنّ الذات ليست في مواجهة ذاتها المُتماهية فحسب، بل هي أيضاً في مواجهة الغير، ولا تكتمل صورتها الأنطولوجية إلا في ضوء هذه الغيرية، غيرية تلعب دوراً مزدوجاً

داخل سيرورة الفعل – الفهم عند ريكور، فهي تمارس من جهة نشاطها من أُفق يحمل رؤية الذات لذاتها ضبابياً، بما أنّ الغيرية تصبح بديلاً منهجياً ووجودياً عن الذات المُتماهية، لكنّها من جهة ثانية تعمل على تحفيز الذات، بل على استفزازها، من أجل بلوغ أعمق لماهياتها وفق شعار الهرمنيوطيقا الأول، كما تصوّره ريكور: "التفسير الأوفر من أجل الفهم الأفضل". (ريكور، 2006، ص. 12).

5. الخطاب وفائض المعنى عند بول ريكور:

لكي يُعيد ريكور الاعتبار للغة بوصفها وساطة بين الأفكار والأشياء، فإنّه يميّز بين علم الدلالة والسيمياء، ويُعيد النظر في ثنائية سوسير عن اللّسان والكلام، ويرى أنّ الأَولى وضع كلمة "خطاب" بدلاً من "كلام". لأنّ الكلام عند دي سوسير يمتاز بالتنافر، وبعدم الانضباط، بينما يمتاز اللّسان أو اللغة بالانسجام والتشاكل، مما يضفي إلى جعله موضوعاً بعلم خاص. الكلام عند دي سوسير فردي وتعاقبي وعارض، واللغة أو اللّسان هو الاجتماعي والتزامني والنسقي. ويتضح في هذا المجال أنّ ريكور يضع "الخطاب" بدلاً من "الكلام"، لا ليؤكد فقط على خصوصية الخطاب، وإنّما ليُفرّق بين "علم الدلالة" و"السيمياء"، لأنّ السيمياء – في رأيه – تدرس العلاقة، بينما علم الدلالة يدرس الخطاب أو الجملة. (ريكور، 2003، ص.ص.10 – 11).

يتضح لنا في هذا السياق أنّ السيمياء هو العلم الذي يدرس العلامات، وهو علم شكلي صوري، يعتمد على تجزئة اللغة إلى أجزائها المكوّنة. أما علم الدلالة هو علم الجملة، وهو معنيٌّ مباشرة بمفهوم المعنى، أي إدراك الدلالة والمغزى من القول. هذا يعني أنّ علم الدلالة ينصرف انصرافاً كليّاً إلى العمليات التكاملية للغة في تداخلها العضوي. (ريكور، 2003، ص.11).

أما الخطاب فهو واقعة مرتبطة بالبعد الزمني، وبالتالي فإنّ الخطوة الأولى في تصوّر ريكور لبناء (علم دلالة الخطاب) هي التخلّص من الضعف المعرفي، الذي يطغى على دراسة البعد الزّمني في الخطاب. يعني هذا الأمر- في تصوّر ريكور – أنّ لأيّة رسالة لغويّة وجوداً زّمنياً، في تسلسل خطي متتابع يستغرق زّمناً.

من جانب آخر، نجد مظهرين للمعنى عند ريكور، المعنى الذي يريد نقله قائل الخطاب، والمعنى الذي ينقله الخطاب فعلاً. ويكون المعنى لديه ينطوي معاً على ما هو تعقل صوري، وعلى ما

هو تعقل مضموني، أي جدل المعنى الذي يودعه الناطق في نطقه، والانسراب اللغوي الذي تُمليه قوانين اللغة الداخلية. (ريكور، 2003، ص.14).

يتبيّن لنا عطفاً على ما سبق أنّ مشروع ريكور يسعى إلى الاحتفاظ بالتأويلية ويُحافظ على بُعديها معاً، على البُعد الذاتي من حيث الوظيفة الاسنادية، وعلى البُعد الموضوعي في وظيفة الهويّة. ولا يتحقّق ذلك في رأيه إلا من خلال فلسفة في الخطاب تحرّر التأويلية من أهوائها النفسانية والوجودية. (ريكور، 2003، ص.15).

6. أبعاد الفلسفة التأويلية عند بول ريكور:

يكمن سرّ جاذبية فلسفة ريكور في أنّها تنطوي على مشروعين متناقضين، تريد التوفيق بينهما، فمن جهة هناك أنتروبولوجيا فلسفية تسعى لتحقيق فلسفة في الإرادة، وتستثمر الفينومينولوجيا والانطولوجيا والوجودية، وتتضح أبعادها بدءاً من كتبه الأولى: "رمزية الشر"، "التناهي والإثم"، "الإنسان الخطاء"، "فرويد والفلسفة". ومن جهة ثانية، هناك تأويلية نقدية تريد الاستفادة من آخر ما توصلت إليه علوم اللغة ونظريات الاتصال. وتتمثل هذه التأويلية في كتبه اللاحقة: "صراع التأويلات"، "أسطورة الاستعارة"، "التأويلية والعلوم الاجتماعية"، "الأيديولوجيا واليوتوبيا"، "من النص إلى الفعل"، وأخيراً "الزّمان والسرد". (ريكور، 1999، ص.11) يقوم مشروع ريكور على التوفيق بين ميراث الانطولوجيا بدءاً من أرسطو ومروراً بالقديس أوغسطين، وانتهاءًا بهيدغر، وميراث التأويلية، وخصوصاً في أوجهها الحديثة القائمة على تحليل اللغة، ليس فقط بالمعنى اللغوي لدى دي سوسير وبنفنست وغيرهما، بل لدى المدارس ما بعد البنيويّة، أيضاً، و لا سيّما التفكيك ومدرسة الأفعال الكلامية والنظريات الاتصالية والبلاغية وتحليل اللغة الدينية. (ريكور، 1999، ص. 12).

يقتضي مقام الحال هنا، ضرورة تحديد نقطة الانطلاق في فهم فلسفة ريكور من آرائه اللغوية، حيث نجده ينظر للغة في علاقتها بالفلسفة من خلال مظهرين: الأول، اللغة من حيث هي صياغة للمفاهيم والأفكار، وهذا ما بحثه في كتابه "سطوة الاستعارة". والثاني، اللغة من حيث هي أفعال، وهذا ما بحثه في كتابه "الزّمان والسرد". (ريكور، 1999، ص. 12).

عطفاً على ما سبق، ندرك أنّ ريكور تناول اللغة في كتابه الأول بوصفها أفكاراً مجرّدة عن الزّمان، ولذلك فهو يتحدث عن الخطاب الشعري، بينما يتناول في كتابه الثاني اللغة بوصفها أفعالاً متتابعة في الزّمان، ولذلك يتحدّث عن الخطاب السردي. في الحالة الأولى نحن أمام الشعر بفرديته وتعاليه عن الزّمان، وفي الحالة الثانية نحن أمام السرد باجتماعيته وعِناقه للزّمانية. وفي كلا المظهرين يهتم ريكور بعلاقة اللغة بالفلسفة (Jervolino, 2002, p. 22) بشكل يكشف هذه الخاصية، ضمن الخِطابين الشعري والسردي على حدّ سواء.

7. التأويلية ومستويات اللغة عند بول ريكور:

يتناول ريكور مستويات اللغة في أبعادها المختلفة بدءاً من اللغة بوصفها خطاباً بمصطلحات حديثة بمعنى أنّها لا يمكن أن تصاغ صياغة مناسبة دون اللجوء إلى التقدم الهائل الذي أحرزه علم اللغة الحديث. (ريكور، 2003، ص.23) والخطاب بوصفه واقعة لغوية، هذا يعني أنّ الوقائع تختفي بينما تبقى الأنظمة. لذلك فالحركة الأولى للكلام النابع من الطبيعة المُنفلتة للواقعة، قياساً بثبات النظام بربطه بالأسبقية الأنطولوجية الوجودية للخطاب، الناتجة عن فعليّة الواقعة في مُقابل افتراضية النّظام. (ريكور، 2003، ص.34) والخطاب بوصفه إسناداً، على أساس أنّ النظر إلى المُحتوى الخبري، يدفعنا إلى وصف الجملة بسّمة واحدة متميّزة، ألا وهي أنّ لها محمولاً أو مسنداً. هذا يشير – كما لاحظ بنفنست – إلى أنّ اللغة قد تستغني عن الفاعل أو المبتدأ، وغير ذلك من المقولات اللغوية، ولكنّها لن تستغني أبداً عن المسند. (ريكور، 2003، ص.35).

يرى ريكور أنّ التأويلية بقدر ما تكون تأويلاً موجهاً نحو النّص، وبقدر ما تكون النصوص، من بين أشياء أخرى، حالات من اللغة المكتوبة، فما من نظرية تأويل ممكنة لا تشتبك مع مشكلة الكتابة. وفي هذا المنحى يُبيّن ريكور أنّ للانتقال من التكلّم إلى الكتابة، يقتضي وجود شروط إمكان خاصة في نظرية الخطاب. كما يسعى إلى ربط ذلك النوع من التخارج القصدي، الذي تعرضه الكتابة بالمُشكلة المركزية في التأويلية (ريكور، 2003، ص.55). أما فيما يخص الاستعارة والرمز، ينطلق ريكور من مسألة الدلالة اللفظية، هل يُمكن اعتبارها الدلالة بأسرها؟ أم هناك فائض معنى يتخطى حدود العلامة اللغوية؟ يشير ريكور، خاصة في "رمزية الشر" و"فرويد والفلسفة" إلى تعريف التأويلية تعريفاً مباشراً بموضوع كان يبدو كأدّق ما يكون، وهو الرمز. وفيما يتعلّق بالرمز فقد عرّفه بالمُقابل من خلال بنيته الدلالية، في انطوائه على معنى مزدوج. (ريكور، 2003، ص.ص.83- 84).

8. من هرمنيوطيقا النصوص إلى هرمنيوطيقا الفِعل:

في الإجابة عن السؤال: ما هو النص؟ يقول ريكور: نسمّ نصّاً كلّ خطاب ثبّتتهُ الكتابة. (ريكور، 2004، ص. 95) كما أنّ كلّ كتابة تنضاف إلى شيء ما من كلام سابق، وفي الواقع إذا كنا نعني بالكلام، مع دي سوسير، تحقّق اللغة في حدث خطاب ما، إنتاج خطاب فريد من طرف متكلّم مُفرد، فإنّ كلّ نّص إذن هو بالنسبة للغة في نفس موقع انجاز الكلام. وتعتبر الكتابة، علاوة على ذلك، بصفتها مؤسسة، تالية للكلام الذي يبدو أنّها منذورة لتثبيت كلّ تلفّظاته التي لاحت شفويّاً، بشكل خطيّ موجز.

من هنا، يبدو اليقين التّام بأنّ الكتابة كلامٌ مُثبتٌ، والتسجيل سواءٌ كان تخطيطاً أو تدويناً، هو تسجيل للكلام، تسجيل يضمن الكلام ديمومته، بواسطة خاصية النقش الدائمة. (ريكور، 2004، ص 95) يُضيف ريكور موضحاً أنّ استباق الكلام، النفسي والاجتماعي، للكتابة، ليس موضع تساؤل. يُمكن فقط أن نتساءل عمّا إذا كان الظهور المُتأخر للكتابة لم يثر تحوّلاً جذرياً مّا، في علاقاتنا بمنطوقات خطابنا. ثمّ يعود ريكور إلى التعريف السابق بأنّ: النّص خطابٌ أثبتته الكتابة. فما أُثبت بالكتابة إذن خطابٌ كان بإمكاننا أن نقوله، بالتأكيد، لكنّنا نكتبه بالضبط لأنّنا لا نقوله. يتّضح من خلال ذلك أنّ التثبيت بالكتابة يحلّ محلّ الكلام، أي حيثما كان بإمكان الكلام أن يولد. يُمكن لنا إذن – وفق تصوّر ريكور – أن نتساءل إن لم يكن النّص نّصاً حقاّ، عندما لا ينحصر في تسجيل كلام سابق، بل عندما يُدوّن مباشرة بالحروف، ما يُريد الخطاب قوله. (ريكور، 2004، ص.96).

9. إشكالية الفهم والتفسير عند بول ريكور:

عند تناولنا لإشكالية التفسير والفهم، يعود ريكور إلى ما وراء التأويلية الرومانسية، حيث يذكر أنّه يودّ – في هذا المجال – أن يقدّم لنظريته في التأويل تحليلاً للكتابة يكون نظيراً لتحليل النصّ بوصفه عملاً من أعمال الخطاب. وما دام فعل القراءة يُشكّل نظيراً لفعل الكتابة، فإنّ جدل الواقعة والمعنى، الذي يُشكّل جوهر بنية الخطاب، يولّد جدلاً ملازماً له في القراءة بين الفهم والتفسير. ودون محاولة فرض مُطابقة آلية بين البنية الداخليّة للنص بوصفه خطابُ الكاتب، وعملية التأويل بوصفها خطابُ القارئ. (ريكور، 2003، ص.ص.117 -118) .

تبيّن من خلال تتبع مسار البحث في المجال الفلسفي الهرمنيوطيقي أنّ تعريف الهرمنيوطيقا مُرتبط بشكل كبير بمفاهيم الفهم والتفسير والتأويل، غير أنّ هذه المفاهيم الأساسية لم تلق اتفاقاً بين الفلاسفة، سواءٌ بالنسبة لمدلولها أو وظائفها في إدراك المعنى، أو بالنسبة للعلاقات فيما بينها، حيث يقيم الموقف الكلاسيكي مُمثلاً في دلتاي خاصةً وشلايرماخر قبله، تعارضاً بين الفهم والتفسير داخل الهرمنيوطيقا، أي بالنظر إليهما كثنائية متعارضة، وهي ثنائية إبستمولوجية ووجودية في الوقت نفسه، على أساس أنّهما يُعبّران عن نمطين مختلفين في المعرفة والوجود. (عقيبي، 2012، ص.57).

يرى ريكور أنّ هذا الاستقطاب الوليد بين التفسير والفهم كما يُدرَكُ إدراكاً مُهماً في عملية المناقشة الاتصالية، يتحوّل إلى ثنائية واضحة في التأويلية الرومانسية. وكلا هذين المُصطلحين في هذا الزوج يُمثّل نمطاً مُتميّزاً وغير قابل للاختزال من المعقولية. حيث يجد التفسير ميدان تطبيقه في العلوم الطبيعية. (ريكور، 2003، ص. 118) وحين يكون هناك وقائع خارجية ينبغي ملاحظتها ورصدها، تُعرَض الفروض على التحقّق التجريبي، بحيث تغطي قوانين عامة مثل هذه الوقائع، وتحيط نظريات شاملة بالقوانين المُتفرّقة في كلّ نسقيّ، وتندرج العمليات الفرضية – الاستنتاجية في تعميمات تجريبية، ثمّ يكون بوسعنا بعد ذلك أن نقول أنّنا بصدد عملية تفسير. (ريكور، 2003، ص. 119).

يجد الفهم – في المقابل – ميدان تطبيقه الأصيل في العلوم الإنسانية (علوم الروح)، كما يدعوها (الألمان)، حيث للعلم علاقة بتجارب ذوات أخرى أو عقول أخرى مشابهة لعقولنا وذواتنا. وتكون أنماط التعبير المباشرة ذات معنى لأنّها تحيل مباشرة إلى تجربة تنقلها من عقل إلى آخر. تعتبر هذه الثنائية الموجودة بين الفهم والتفسير في التأويلية الرومانسية هي ثنائية إبستمولوجية وأنطولوجية معاً. فهي تضع في مقابلة منهجيتين وعالمين من الواقع والطبيعة والعقل. (ريكور، 2003، ص. 120).

يتبيّن لنا بعد العرض السابق أنّ ريكور يصف الفصل بين الفهم والتفسير بوصف المعضلة المركزية في الهرمنيوطيقا التي تحتاج إلى حلّ، وفي معرض كلامه عن منهجية كتابه "من النص إلى الفِعل"، فإنّه يؤكد أنّ "الطريق أصبح مهيئاً من أجل مبادرة لحلّ المعضلة الأساسية للهرمنيوطيقا المقدمة في هذا الموضوع الأول، لمعرفة المقابلة الهدامة في نظري بين التفسير والفهم" (Ricœur,

(1986, p. 83، فالتقابل بين الفهم والتفسير، ووضع أحدهما في معارضة الآخر، أمرٌ مرفوضٌ عنده، ولذلك سعى إلى تأسيس التكامل الجدلي بينهما، ذلك أنّ الهرمنيوطيقا والإبستمولوجيا ليسا منهجين مختلفين، بل هما يتداخلان باستمرار. (Ricœur, 1995, p. 113) فهو يسعى من خلال ذلك إلى نقد موقف القطيعة بين الفهم والتفسير، ويقدم تبريرات الجدل بين الفهم والتفسير. حيث نجده في كتابه "النقد والقناعة" يجيب عن سؤال يتعلّق بإشكالية العلاقة بين الفهم والتفسير، والسجال الذي حصل حولها، بأنّه لا يقبل الفصل بين الفهم والتفسير، لأنّ ذلك يؤدي إلى الفصل بين الفلسفة الهرمنيوطيقية والإبستمولوجيا، فإذا كانت الهرمنيوطيقا تقوم على الفهم، فإنّها تحتاج إلى التفسير. وإذا كانت الإبستمولوجيا تقوم على التفسير لارتباطها بفكرة العلم، فإنّها تحتاج بدورها إلى الفهم.(Ricœur, 1990, p. 345) .

خاتمة:

حاول بول ريكور في مرحلة الستينات من القرن الماضي- وهي الفترة التي ازدهرت فيها البنوية كأيديولوجيا- أن يبدأ تساؤله الفلسفي في دائرة الاهتمام التأويلي، وكانت كتاباته الأولى مستغرقة بنوع من التأمل الذاتي القائم على الأخلاق المسيحية. غير أنّه سرعان ما وجد طريقه إلى الاهتمام بالبنيوية، وحينئذ بدأ ريكور يطوّر مشروعه التأويلي الخاص، الذي يستثمر الاتجاهات الحديثة جميعاً: البنيوية والوجودية والتأويلية والماركسية ونظرية الثقافة والتفكيك والتحليل اللغوي ونظريات اللغة وأنتروبولوجيا الدين.

توصل من خلال ذلك كلّه إلى بناء نسق فلسفي فريد من نوعه، يستفيد من جميع هذه الاتجاهات وينتقدها في آن واحد، ليطوّر مشروعاً فلسفياً اعتبره البعض أهمّ محاولة في القرن العشرين.

عطفاً على تحليلنا السابق، نقول أنّ بول ريكور استثمر في فلسفة أعلام الفكر الهرمنيوطيقي، الذين سعوا إلى البحث عن المعنى والدلالة، والكشف عن الغايات والمقاصد، المُختفية في المُنجز الفكري والثقافي، والمُتشعّبة في دروب المباحث الأخرى، في علوم النّص وعلم الدلالة وعلم التفسير. الأمر الذي ساعده على بناء هرمنيوطيقا فلسفية عامة، تستند إلى قواعد التأويل والفهم.

ونُشير كذلك إلى قيمة ارتباطه بأقطاب الفكر الفينومينولوجي، الذين سعوا بدورهم في الاهتمام بفلسفة الذات، قصد إدراك أزمة المعنى وتجاوزها، الأزمة التي طالت علوم الإنسان، والتي ساهمت جهود الباحثين في الحقلين الفينومينولوجي والهرمنيوطيقي للكشف عن أبعادها، وهي تروم إعطاء الأهمية لهذه العلوم، من أجل تحقيق الشرط الوجودي للفهم، انطلاقاً من تأمل الذات واستشراف آفاق الانفتاح، في أبعادها المُتعدّدة لإنتاج المعنى وانبثاقه، في خضم حياة الإنسان وأنطولوجيته.

المصادر والمراجع:

1. ريكور، بول، (1999)، الوجود والزّمان والسرد، ترجمة: سعيد الغانمي، (ط1)، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، المغرب.
2. ريكور، بول، (2003)، نظرية التأويل– الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، (ط1)، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، المغرب.
3. ريكور، بول، (2004)، من النص إلى الفعل- أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة (و) حسان بورقية، (ط1)، دار الأمان، الرباط – المغرب.
4. ريكور، بول، (2006)، بعد طول تأمل، ترجمة: عمر مهيبل، (ط1)، منشورات الاختلاف - الجزائر.
5. عقيبي، لزهر، (2012)، جدلية الفهم والتفسير في فلسفة بول ريكور، (ط1)، منشورات الاختلاف - الجزائر، دار الأمان، الرباط.
6. غراندان، جان، (2004)، المنعرج الهرمنيوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة: عمر مهيبل، (ط1)، الدار العربية للعلوم، ناشرون- بيروت.
7. Ricœur, Paul, (1986), du texte a l'action, essai d'herméneutique II, édition du seuil ; Paris
8. Ricœur, Paul, (1995), La critique et la conviction, entretiens avec François Azoufi et Marc de Launay, Calmann – Lévy, Hachettes littératures, Paris.
9. François – Xavier, (2004), L'herméneutique philosophique de Paul Ricœur et son importance pour l'exégèse biblique, édition du cerf, Paris.
10. Dominico Jervolino, (2002), Paul Ricœur: une herméneutique de la condition humaine, édition humaine, édition ellipses, Paris.
11. Paul Ricœur, (1990), Soi même un autre, édition du Seuil, Paris.